مجلة منتدى الأستاذ

المجلد: 20 العدد: 01 السنة: ديسمبر 2024 الصفحات 594 ـ 604

معالم الفكر التربوي في فكر وفلسفة محمد إقبال

The Characteristics of Educational Thought in the Philosophy of Muhammad Iqbal

أحمد باجي[1]،*

[1] جامعة مولود معمري، تيزي وزو (الجزائر)، ahmed.badji@ummto.dz

تاريخ الإرسال: 25/ 06/ 2022 تاريخ القبول: 27/ 12/ 2023

الكلمات المفتاحية:

الفلسفة؛

الفكر؛

التربية؛

الدين؛

الذات؛

الملخص:

نهدف من خلال هذا المقال إلى الإجابة على الإشكالية التالية: ما هي معالم وأسس الفكر التربوي في فلسفة محمد إقبال؟ وكيف يمكننا من خلال هذه الأسس والمعالم بناء شخصية إسلامية قوية ومتوازنة؟

للإجابة على هذه الإشكالية، سنحاول الاشتغال على بعض نصوص "إقبال" مستخدمين في ذلك المنهج التحليلي النقدي والذي نراه الأنسب للاشتغال على تلك النصوص، في ختام هذه الدراسة سنلخص أهم النتائج المتوصل إليها في شكل خاتمة لهذا المقال.

Keywords:
philosophy,
Thought,
Education,
Religion,
Self,

ABSTRACT:

This article aims to address the following question: What are the features and foundations of educational thought in the philosophy of Muhammad Iqbal? And how can these features and foundations contribute to building a strong and balanced Islamic personality? To answer this question, we will analyse selected texts by Iqbal using the critical analytical method, which we deem most appropriate for this purpose. In conclusion, we will summarise the key findings of this study in the form of a conclusion to this article.

* أحمد باجي

مقدمة:

تعتبر التربية من أهم الجوانب التي تساهم في تكوين شخصية الإنسان لما لها من أثر في تقوية شخصيته واستقامة سلوكه، لذلك خصها الفلاسفة والمفكرون المسلمون في كتاباتهم الفلسفية بعناية خاصة.

إن الموروث الثقافي والفكري الإسلامي يزخر بكتابات فلسفية وفكرية وافرة في هذا الشأن على غرار كتابات الغزالي والفارابي وابن طفيل وابن رشد، وهذا على سبيل المثال لا الحصر. إن الفكر الإسلامي المعاصر يزخر كذلك بكتابات لا تقل شأنا وأهمية عن كتابات السلف تخص الناحية التربوية للشخصية الإسلامية على غرار كتابات الإمام ابن باديس، ومالك بن نبي، وشاعر الإسلام محمد إقبال.

يحظى موضوع التربية في فكر هذا الأخير بعناية قصوى، حيث لا نكاد أن نعثر على فقرة نثرية أو قصيدة شعرية إلا وفيها إشارة إلى أهمية البعد التربوي في تشكيل شخصية المسلم، ويستقي محمد إقبال أفكاره التربوية من المعين الإسلامي الذي تشكله في فلسفته ثلاثة أسس:

- القرآن والسنة النبوية.
- تاريخ الحضارة الإسلامية.
- الاغتراف من الموروث الثقافي والفكري الإسلامي خاصة الصوفي منه.

تلك هي المعالم التي استند إليها محمد إقبال في فلسفته التربوية. وبناء على ما أشرنا إليه آنفا، يمكننا طرح هذا التساؤل: ما مفهوم الفكر التربوي، وما معالمه في فلسفة محمد إقبال؟. وما الأسس التي يستند إليها؟. وكيف يمكننا من خلال هذه المعالم والأسس أن نبني شخصية إسلامية قوية غير متهاونة، مستعدة لمجابهة واقعها المعيش؟.

1.دور العقيدة الوسطية في تربية وبناء الذات الإسلامية

1.1. معنى مصطلح خودي في فلسفة محمد إقبال:

كثيرا ما تساءل الدارسون والمهتمون بفلسفة محمد إقبال عن سبب اختياره لمصطلح "خودي" على الرغم مما لهذا المصطلح من معان غير محببة من طرف الإنسان، فما معنى مصطلح خودي في اللغة الفارسية؟. إن اختيار محمد إقبال لكلمة خودي كان اختيارا شاقا نظرا لما يعنيه هذا المصطلح، كما قلنا سابقا، من معان غير محببة، وبسبب تلك المعاني تعرض محمد إقبال للكثير من الانتقادات من قبل المهتمين بفلسفته بسبب اختياره لذلك المصطلح، والذي يعني لدى عامة الناس الأنانية والأثرة، وهذا ما عبر عنه بنفسه عندما قال: "اخترت كلمة (خودي) بصعوبة بالغة وبجهد شديد، فمن وجهة النظر الأدبية فيها العديد من المثالب ونواحي النقص، ومن الناحية الأخلاقية تستعمل عادة في كل من الفارسية والأردو بمعنى "سيئ"، كذلك الحال مع الكلمات الأخرى للحقيقة الغيبية لكلمة "أنا" فكلها على نفس الدرجة من السوء، ومثل أنا، شخص، نفس، وكلمة (مين) على نفس القدر من السوء، ومع ذلك وحرصا على متطلبات الشعر، فقد [وجدت] أن كلمة (خودي) أكثرها مناسبة"[1].

إن محمد إقبال لم يقصد بهذا المصطلح المدلول العامي الذي يعني الأنانية والفردية والأثرة، وإنما قصد به معنى خاصا وهو "الإحساس بالنفس أو تعيين الذات"[2]، أما من الناحية الأخلاقية، فإن إقبال قصد به الثقة في الذات والاعتزاز بها والاعتماد عليها واحترامها والتأكيد على وجودها ومحاولة تقويتها وحمايتها من الذوبان، ولذلك نجد محمد إقبال يؤمن "بالإنسان ووجوده، أشد الإيمان، فذات الإنسان في نظر إقبال هي أصل الكون، وإهمال الذات وعدم الشعور بها وعدم وعيها الوعي التام هو الجهل والبلاء المؤدي إلى خراب العالم"[3]، فاستمرارية الذات عند محمد إقبال مرتبطة بعاملين مهمين؛ وهما التوتر والعمل، فالأول يجب أن يسود الذات لأنه يساعد على استمرارها، ولذلك كان الاسترخاء فعلا مستهجنا من طرف محمد إقبال لأنه يؤدي إلى إضعاف الذات، وهذا العامل مرتبط بالعامل الثاني وهو العمل، فالاستمرارية في العمل تؤدي حسب إقبال إلى استمرارية التوتر وفي استمرارية التوتر تكمن استمرارية الذات، ويتضح ذلك من خلال تساؤله في إحدى قصائده عن معناها:

"ما هي الذات؟ إنها حد السيف.

ما هي الذات؟ إنها هي سر قلب الحياة.

وما هي الذات؟ إنها هي صحوة السكون"[4].

والذات عند محمد إقبال غير محددة في شخص معين، فهي متعالية عن كل إنسان وفي نفس الوقت تخص كل إنسان، فهي كلية في ذاتها جزئية في تشخصاتها، إن "(الذات) تظهر في أنا وأنت وإنها منزهة عني أنا وأنت"[5]، بالإضافة إلى ذلك يرى أيضا أن الذات أزلية ليست محدودة بإطار زمني معين، فمن صفاتها الديمومة، وديمومتها مستمدة من ديمومة الزمن، "فليس لها حد لا في الأمام ولا في الخلف، وإنها (الذات) تجري، نهر الزمن"[6]، ومن صفات الذات أيضا القوة وهذه القوة تكتسبها الذات من مواجهة الصعاب ومن تجلدها بالصبر على المواجهة والتحدي، "في يدها (الذات) الحجر الثقيل يصبح خفيفا، وبضربها، يصبح الجبل متهدما"[7].

2.1. إثبات الذات عند محمد إقبال كدعامة تربوية لقيام الشخصية الإسلامية:

يرى محمد إقبال أن كل إنسان وحدة انفرادية، والقصد هنا بالانفرادية ليس النزعة الفردية، بل الوحدة الشخصية، وبتعبير آخر أن كل إنسان يمتلك شخصية خاصة به تميزه عن بقية الأفراد الآخرين، هذه الشخصية أو الذات لابد للإنسان أن يثبتها وينميها، وعلى قدر ما يثبتها وينميها على قدر ما تكتمل ذاتيته وتقوى، وكلما تراخى عنها ولم يقوها كلما ضعفت شخصيته، لذلك يمكننا القول إن فلسفته قائمة إجمالا على هذه الذاتية أو كما يسميها هو (خودي)، فالذات عنده هي التي تشكل قوة الإنسان، لذلك كانت هذه الذاتية مركزا للكون، وأصل تنظيمه، بالإضافة إلى هذا يعتبرها محمد إقبال، أنها واحدة وإن تعددت، ولذلك يقول في إحدى قصائده والتي عنوانها "نظام العالم من الذاتية وإن تسلسل حياة أعيان الكون لا يكون إلا باستحكامها".

"هيكل الأكوان من أثارها كل ما تبصر من أسرارها.

نفسها قد أيقظت حتى انجلى عالم الأفكار ما بين الملا.

ألف كون مختلف في ذاتها غيرها يثبت من إثباتها"[8]

ويرى أن هدف الإنسان الأخلاقي والديني يكمن في تحقيق ذاته التي تميزه وتفرّده عن باقي الموجودات، الأخرى، وبذلك فهو يخالف النزعة الصوفية التي ترى أن خلاص الذات يكمن بفنائها في الذات المطلقة، ولا يتحقق لها ذلك إلا بعد مجاهدة طويلة، أو كما يسمونه بالرياضة الصوفية، وهذا الفناء هو أسمى ما يمكن أن تصل إليه الذات الإنسانية.

إن فلسفة الذات عند محمد إقبال لا تقوم أبدا على تلك النظرة الإشراقية للفلسفة الصوفية، بل هي على النقيض منها تماما، فإذا كانت الفلسفة الصوفية ترى أن قيمة الذات تكمن في تدرجها نحو الفناء عن طريق التخلص من كل ما هو مادي، فإن فلسفة محمد إقبال ترى أن الإنسان يجسد بعده الديني والأخلاقي عندما يثبت ذاته، ويشعره هذا الإثبات بأنه شخص واحد ووحيد لا مثيل له، ولا يتوقف إقبال عند هذا الحد بل يطلب من الإنسان المسلم أن يقوي ذاته، لأن بتقوية الذات يجسد الإنسان بعده الديني والأخلاقي، ولا تصل الذات إلى هذه الدرجة من القوة والوحدة، التي لا يماثلها فيها أحد، إلا حينما تتخلق بالأخلاق التي أمر بها الله، وبتخلقها بهذه الأخلاق تكون متشبهة بالذات المطلقة من حيث الصفات الأخلاقية، وكلما تشبهت بالذات المطلقة من حيث الصفات الأخلاقية الحميدة، كانت ذاتا متفردة لا مثيل لها.

إن فلسفة محمد إقبال، تطلب من كل مسلم أن يضع نصب عينيه الذات الإلهية كمثال أعلى، ويحاول أن يجاهد نفسه من خلال السعي إلى التمسك بالصفات الأخلاقية التي وصف الله بها نفسه، فهو يرى "أن هدف الإنسان الديني والأخلاقي، إثبات ذاته لا نفيها، وعلى قدر تحقيق انفراده أو وحدته، يقترب من الهدف. قال رسول الله ﷺ «تخلقوا بأخلاق الله» فكلما شابه الإنسان هذه الذات الوحيدة كان هو كذلك فردا بغير مثيل"[9].

يعتقد إقبال أن قوة الذات لا تبقى كامنة في ذاتها بل تنعكس على العالم فقوة العالم من قوتها وضعف العالم من ضعفها، ومن أجل تقوية عالمها نراها تسعى إلى تخطي جميع الصعاب التي تعترضها، وبتخطيها لتلك الصعاب تزداد قوة، فقوة الذات تكمن في مدى قدرتها على التصدي والتحدي لقوى الطبيعة "والشدائد والمحن في هذه الحياة تقوى الذاتية، والآلام واللذات تكمل بعضها بعضا"[10]، ولتقوية الذات عدة عوامل أهمها:

أ–خلق المقاصد:

إن لخلق المقاصد دور مهم في عملية تقوية الذات لدى الإنسان المسلم، فلا تقوى ذاتيته إلا بخلقها للمقاصد، وبسعيها لبلوغ هذه المقاصد، وكلما عظمت هذه المقاصد كلما تحملت الذات المزيد من الآلام وتحطيم العقبات من أجل بلوغه، وفي ذلك حسب إقبال تقوية للذات.

"إنما يبقي الحياة المقصد جرس في ركبها ما تقصد"[11]

ب–عامل الأمل:

أما العامل الأخر والذي يؤدي إلى تقوية الذات، هو عامل الأمل، ولذلك كانت فلسفة إقبال فلسفة أمل، فبواسطته تستطيع الذات أن تستمر في حياتها، وباستمرارها في الحياة تقوية لها، والأمل هو الذي يدفعها إلى العمل الدؤوب والاستمرار في العطاء، وبذل جهد أكثر، فالذات الميتة عنده، هي الذات الفاقدة للرجاء والأمل:

"وممات الحي فقدان الرجـاء يطفئ الشعلة فقدان الهواء
ذلك العقل الذي الكون طوى وترى الإعجاز فيه والقوى
إنما أصـــــــل الحياة الأمـــل فكذاك العقل منه ينسل"[12]

ج- عامل الخوض في غمار المادة ومواجهة الطبيعة:

يعتقد إقبال أن من أهم الأسباب التي تعيق الذات في تحقيق ذاتيتها هي المادة، أو ما يعرف بعالم الطبيعة، فهي من أهم العقبات التي تعيق تقوية الذات، لذلك يرى إقبال أنه من الواجب على الإنسان المسلم من مواجهتا، وأن لا يفر منها، وهذه أهم نقطة خلاف بين فلسفة إقبال التي تنبض بالحياة، والحيوية والفلسفة الصوفية، فإذا كانت الفلسفة الصوفية تدعوا إلى الفناء ووحدة الوجود، ولا يتحقق هذا المبتغى لدى الصوفي إلا من خلال مجانبته للمادة، لأنها تمثل مصدر الشر لديه، فهي كلها شر، لأنها تقف حسبه في وجه سمو الذات إلى مراتبها العليا، ولذلك كان الشعر الصوفي يمثل دعوة إلى مجانبة الحياة المادية والفرار منها من خلال ذمه لها، ولقد وضّح ذلك في قوله: "وأشد العقبات في سبيل الحياة المادة أو الطبيعة، ولكن المادة ليست شراكما يقول حكماء الإشراق، بل هي تعين الذات على الرقي، فإن قوى الذات الخفية تتجلى في مصادمة هذه العقبات"[13].

فالمادة حسب محمد إقبال، لا يكمن الشر فيها، وإنما يكمن في الطابع الذي يضفيه عليها الإنسان من خلال ذاتيته، ولذلك يجب على الذات أن تواجهها من أجل تذليلها وتسخيرها، وفي هذا التذليل والتسخير للطبيعة تقوية للذات، ففلسفة محمد إقبال فلسفة مواجهة وليست فرار، فالفرار من الحياة المادية وعدم مواجهتها هو الوجهة السلبية للذات عنده، بينما المجابهة والمغالبة والخوض في غمار الحياة ومجابهة أخطارها هو الوجهة الايجابية للذات، فهو يطلب من المسلم أن يكون قويا مثل "سيرة الفولاذ في مصاف الحياة، ولتكن ناعما كالحرير في مهد الحب. ولتمرّ كالسيل الكاسح من الصحاري والجبال"[14].

د-الحرية:

تعتبر الحرية من بين العوامل المؤدية إلى إثبات الذات والمقوية لها، لذلك كان محمد إقبال من أنصار حرية الاختيار، لكن حرية الإنسان عنده مرهونة بمدى قدرة الإنسان في سيطرته على الطبيعة وتسخيرها، لذلك فهو يدعو دعوة دائمة لمواجهة الطبيعة وهذا لسببين، فالأول؛ من أجل تقوية الذات، كما قلنا سابقا، أما الثاني؛ من أجل أن يتحرر الإنسان من عوائقها، إذ بالسيطرة عليها يحقق الإنسان حريته، لذلك كانت فلسفته فلسفة انعتاق وحرية، وحرية الإنسان التي ينشدها، لا تتعارض حسبه مع حرية الذات المطلقة، بل على العكس من ذلك تماما، فإن أفعال الإنسان ومبادراته الفردية، تؤكد إطلاقية الفعل الإلهي، فمن خلال حرية أفعاله، يؤكد أحقيته بثقة الله ومشيئته، ومن ثمة يستمد خلافته في الأرض، ف "إذا قهرت الذات كل الصعاب التي في طريقها بلغت منزلة الاختيار. [إن] الذات نفسها [لا تخلو من] اختيار وجبر ولكنها إذا قاربت الذات المطلقة نالت الحرية الكاملة. والحياة جهاد لتحصيل الاختيار، ومقصد الذات أن تبلغ الاختيار بجهادها"[15]. ومعنى هذا، أن الذات لا تقوى إلا من خلال مجابهة الطبيعة وتسخيرها، وهذا واجب ديني وأخلاقي، وبتقوية الذات تقترب من الذات الإلهية وباقترابها من الذات الإلهية تنال

حريتها واختيارها، ففي تسخير الطبيعة تقوية للذات، وفي تقوية الذات، اقتراب من الذات المطلقة، وبطبيعة الحال لا يتم هذا إلا من خلال العمل المستمر ومجاهدة الطبيعة من أجل التغلب عليها.

هـ – عامل التوتر والعشق:

أمّا من حيث البعد النفسي للذات، فإن الذات دائما في توتر مستمر، لأن هذه الحالة من التوتر هي التي تحافظ لها على دوامها واستمرارها، بينما حالة الاسترخاء تؤدي إلى ضعفها، فالذات حسب محمد إقبال دائما في حالة تأهب واستعداد للمواجهة، وهذا ما يؤدي إلى تقويتها، فيرى أن "شخصية الإنسان من الوجهة النفسانية، حالة من التوتر ودوام الشخصية موقوف على هذه الحال"[16]، بالإضافة إلى هذه الحالة النفسية المقوية للذات، يضيف محمد إقبال حالة نفسية أخرى، وهي ما يسميه بالعشق، فنظرة محمد إقبال إلى العشق توضح لنا بشكل جلي مذهبه الفردي الشخصاني، لأن العاشق هو فرد واحد والمعشوق كذلك لا يكون إلا فردا واحدا، ولذلك فإن الشيء الذي يطلبه العاشق لا يروي ظمأه إلا إياه وليس غيره، ولا يرضيه إلا مطلبه وما يطلبه العاشق بطبيعة الحال يكون فريدا في ذاته، مثل العاشق تماما، وما سواه لا يمكن أن يروي ظمأ العاشق، فالعشق هو بمثابة القوة الدافعة للذات التي تطلب مقصدها، ولا تنال هذه المقاصد إلا من خلال حرارة عشقها لها، فالمراد لا يتحقق إذا كان متحريه لا يحبه ولا يعشقه، وفي ذلك يقول:

مشعل بالحب منها الجوهر يتجلى من قواها المضـــمر.
قطـرة بالعشق توعي ضرما وهي بالعـــشق تنير العالمـا"[17]

ويقول في موضع أخر:

" أنا العاشق الهندي، انظر إلى شوقي وذوقي.
في القلب الصلاة، وعلى الشفاه، الابتهالات.
إن العشق في لحني، وإن العشق في خشب مزماري.
ونغمة "هو الله" في عروقي وجسدي كـــــله"[18].

لكن كيف تتكون هذه العاطفة الملتهبة لدى الذات الإســـلامية؟.إن المثل الأعلى لأي ذات إســـلامية هو المصـطفى "صـلى الله عليه وسـلم"، وسـيرته تمثل المعلم الذي يجب أن يسـير عليه كل مسـلم، فهو المثل الأعلى للمسـلم، في قوله وفعله، في أمره ونهييه، في صـفائه وكدره، في سـلمه وحربه، إنه السـراج المبين الذي يجب على كل مسلم أن يجعل منه هديه إلى الطريق المستقيم، فعشق المسلم له دليل على حبه لدينه وإيمانه القوي به، ومنه يستلهم قوة ذاته ويصف إقبال مدى حبه للمصطفى "صلى الله عليه وسلم" في قوله:

"عشقه في القلب نور أسفرا للثريا يرتقي منه الثـــــــــرى.
ترب نجد منه قد خف وضاء طار وجدا مصعدا نحو السماء.
مهجة المسلم مثوى المصطفى عزة المسلم ذكرى المصطفى"[19].

فإذا كانت هذه هي العوامل التي تؤدي إلى تقوية الذات، فما هي إذن العوامل التي تؤدي إلى إضعافها حسب محمد إقبال؟ ولعل من بين أهم العوامل التي تؤدي إلى هدم الذات نذكر ما يلي:

أ – الفلسفة التأملية: فهو يعارض بشدة تلك الفلسفات التأملية المغالية في التجريديات الوهمية، مثل الفلسفة اليونانية، ويضرب لنا مثالا عن تلك الفلسفات التأملية بفلسفة "أفلاطون"، التي أعترض عنها، وفي اعتراضه "على أفلاطون، هو في أصله اعتراض على كل النظم الفلسفية التي تقصد إلى الفناء لا البقاء، والتي تغفل المادة، وهي أكبر العقبات في سبيل الحياة، وتدعوا إلى الفرار منها لا إلى تسخيرها والتسلط عليها"[20].

ب – التسوّل:

إن عدم الثقة في الذات والاعتماد عليها وتقويتها يؤديان إلى السؤال، والسؤال صفة مذمومة عند إقبال لأنها تؤدي إلى التواكل والتكاسل، ولذلك يحذر المسلم من هذه الرذيلة:

"أيها الجابي من الأسد الخـراج صرت كالثعلب خبا باحتياج

ذلـــــك الإعواز أصل العلـــل كل آلامك من ذا المعضل "[21].

جـ– إنكار الذات:

إن إنكار الذات بما اخترعته الشعوب المغلوبة على أمرها، من زهد وتصوف حلولي غريب كل الغرابة على الدين الإسلامي، كان سببا مهما في إحجام المسلم عن العمل والتكاسل وعدم مجابهة عقبات الحياة بالانصراف عنها، "فرفض إقبال هذا اللون من هذه الممارسات والطقوس، لأنها في نظره من اختراع الأمم المغلوبة التي خدعت الأمم الغالبة عن نفسها وزينت لها نفي الذات"[22]. وما يؤكد هذا كذلك هو قول محمد إقبال في إحدى قصائده:

"قد سمعنا أن في عصر قديم جمع ضأن كان في مرعى يقيم.

وفرت نسلا بذا المرعى الخصي فارغات البال من ليث وذيب.

ثم ألوى بمناهن القـــــــدر ورمى بالسهم فيهن الدهر"[23].

2. البناء التربوي للشخصية الإسلامية الفردية والجماعية في فكر إقبال

1.2.مراحل تربية الذات:

تمر تربية الذات حسب محمد إقبال بثلاث مراحل، وهي:

أ –إطاعة القانون الإلهي:

إن انقياد المسلم لما أمر به الله والانصياع له والامتثال لأوامره والانتهاء عما نهى عنه، والوقوف عند حدوده، هي شكل من أشكال سعادة المؤمن، وأمر إقبال المسلم بذلك في إحدى قصائده:

"فحمل الفرض قويا لا تهاب وارجون من عنده حسن المآب.

أجهدن في طاعة يا ذا الخسار فمن الجبر سيبدو الاختيار.

بامتثال الأمر يعلو من رسب وهوى الطاغي ولو كان اللهب"[24].

ب– ضبط النفس:

إن ضبط النفس هي المرحلة الثانية من مراحل تربية الذات عند محمد إقبال، وضبط النفس معناه كبح جماح شهوات الإنسان، حتى يرتقي الإنسان بذاته إلى المكانة التي ارتضاها الله له، لكن كبح شهوات الإنسان ليس معناه القضاء على طبيعته وإنما الحد من نهمها، بمعنى جعلها في إطارها الشرعي، وبذلك يتم توازن الذات، التي تجمع الكثير من الأضداد، وتروض هذه الشهوات بممارسة الرياضة الروحية وحسن السلوك، ولقد جاءت في إحدى قصائده دعوته لذلك:

جمل نفسك تربو بالعلف في إباء وعـــــــناد وصلف
فكن الحر وقدها بزمــام تبلغن من ضبطها أعلى مقام
كل من في نفسه لا يحكم هو في حكم سواه مرغــم"[25].

ج – النيابة في الأرض:

إن النيابة في الأرض لا تعني أبدا قيام الإنسان مقام الله في الأرض، فالنيابة تعني قيام الإنسان بتطبيق شريعة الله في أرضه، وبمعنى آخر أن الإنسان يلتزم بما أمره الله به، وهذا الإنسان الذي يسعى إلى تنفيذ أوامر الله، يجب أن يكون إيمانه عميقا، ويجب أن يتصف بالصفات التي أمره الله بها؛ كالعدل والرحمة والإحسان، وأن لا يكون عبدا لغير الله، وبتلك الصفات تقوى ذات المؤمن وتكون مستعدة لتنفيذ ما أمر الله به، ملتزمة بأوامره منتهية عند حدوده، وعندما يصل الإنسان إلى هذه المرحلة يكون بمثابة ذلك الإنسان المسيطر على العالم والمسخر له ولقواه، نافخا فيه الحياة، وعندما يبلغ هذه الدرجة يكون الإنسان الكامل، أو كما يسميه إقبال "النائب الحق" ولقد وصف ذلك النائب في إحدى قصائده بقوله:

"نائب الحق على الأرض سعيد حكمه في الكون خلد لا يبيد
هـــــو بالجزء و بالكل خبير وبأمـــر الله في الأرض أمـــير
هـــو في الناس بشير ونذير وهـو جندي وراع وأمـير"[26].

ويقول في حق الإنسان الكامل أيضا: "وهو كليم وهو مسيح وهو خليل، وهو محمد، هو الكتاب، هو جبريل، ففيه تنعكس صفات الأنبياء جميعا، ولكنه ليس نبيا (هو شمس كائنات أهل القلوب، من شعاعه حياة القلوب) فأولياء الله يتلقون منه الفيوضات الروحانية"[27].

إن الذات عند محمد إقبال لا تكتمل تربيتها إلا بمرورها بهذه المراحل الثلاث، وهي طاعة الله سبحانه وتعالى، ثم بعد ذلك ضبط النفس، أما المرحلة الأخيرة فهي تمكن هذه النفس من النيابة في الأرض، ولقد لخص محمد إقبال مدى أهمية الذات في قوله: "إن الذاتية أساس الحياة، فالله ذات، والإنسان ذات، وحياة الإنسان تتجلى في هذه الذاتية"[28].

2.2. نفي الذات كمقوم تربوي أساسي لقيام مجتمع إسلامي.

رأينا فيما سبق البعد الذاتي في فلسفة إقبال، بمعنى أن الأساس الذي تقوم عليه فلسفته هو إثبات الذات، لكن هذه الذات ليست معزولة عن بعدها الاجتماعي، بل هدفها الأسمى هو تشكيل مجتمع، هذا المجتمع الذي سيكون قويا ومنظما، وبهذا الشكل يتم انتقال الفرد من بعده الذاتي الفردي إلى بعده الاجتماعي. لكن انتقال الذات من كونها ذاتا متفردة عن باقي الذوات، إلى ذات تنسجم وتتكامل مع باقي الذوات الأخرى، من أجل تأسيس مجتمع متكامل ومنظم، لا يمكن أن يتحقق لها ذلك، إلا من خلال حركة الذات الدائمة، وأساس هذه الحركة هو السعي والعمل الجاد الذي يتيح لهذه الذوات، الانتقال من حالة التشتت الذري، المنفصل إلى حالة تكامل فيما بينها الذي يسوده النظام والانسجام فيما بعد، وبهذا الشكل يتم الانتقال بالمجتمع من حالة الفوضى إلى حالة النظام، أو من حالة الكثرة المتغيرة إلى حالة الوحدة الثابتة.

إن الذات القوية ينجر عنها مجتمع قوي، والذات الضعيفة ينجر عنها مجتمع ضعيف، لأن الذات حسب محمد إقبال هي الوحدة الأساسية في تشكيل المجتمع، ولذلك كانت قوة وضعف المجتمع مرهونة بمدى قوة وضعف الذات التي تشكله، ولذلك نجد محمد إقبال دائما يدعو إلى تقوية الذات، وتقويتها لا تكون إلا بواسطة العمل المستمر، وهذا من أجل تشكيل وحدة قوية، هذه الوحدة هي التي نطلق عليها اسم الأمة الإسلامية، وفي هذا يقول الأستاذ "نجيب الكيلاني" "فأنا وأنت لبنة مميزة في بناء الوجود الكبير، وكل لبنة تتعاون مع أختها، وتبذل قصارى جهدها وطاقتها، حتى يظل البناء شامخا قويا لا يتزعزع ولا يرتج، بل يكون دائما في ازدياد مطرد من حيث القوة والمتانة، ومن حسن السمو والارتفاع"[29].

إنّ تقدم وتطور وقوة الأمة عند محمد إقبال، تكمن في الجهد والعمل المستديم الذي يقوم به أفرادها، لذلك كان هذا الجهد لا يخص جيلا دون آخر، ولذلك يجب أن تتصف به كل الأجيال، والتي تعتبر حلقات في تشكيل الأمة القوية والمنشودة من قبل محمد إقبال.

إنّ تلك الأمة لا تقوم حسب إقبال إلا على أساس الفرد الذي يعتبر الدعامة الأساسية لها، ولا يكون هذا الفرد الكامل الداعم لأمة الإسلام، إلا إذا أطّره المجتمع، لأن شخصية الفرد تصقل ضمن إطار اجتماعي محدد المعالم، وبذلك يحدد لها معالم تشكلها، فالفرد دائما في حركة تشخصنية غير منتهية، ولا تقوى هذه الحركة إلا من خلال العمل والسعي المستمر، لذلك كان الإطار الاجتماعي ضروريا للفرد لكي يتشخصن ويكتسب ذاتا قوية، والفرد ضروري للمجتمع لأن وجوده متوقف على فرد ذي شخصية قوية، يقول محمد إقبال: "إنها الحياة لا تحب عادة التكرار، فأنت لست أنا، وأنا لست أنت، ويتكون "لدينا" المحفل من أنا وأنت"[30].

إنّ العلاقة التي تربط الفرد بالجماعة والجماعة بالفرد حسب محمد إقبال، هي علاقة وحدة واستقلال، فالوحدة تكمن في كون الذات لا قيمة لها إلا في إطار الأمة، لذا نجد الذوات تتجاذب فيما بينها وتتعاون من أجل تأسيس مجتمع قوي، فقوة الأمة وصلابتها من قوة الذوات وتكاتفها وتعاونها فيما بينها، وفلسفة محمد إقبال فيما يخص هذا الأمر هي فلسفة شمولية، تهدف من خلال هذه النظرة إلى الارتقاء بالإنسانية إلى درجة الكمال، وكمالها

يكمن في تشكيل أمة إسلامية عالمية، يقول في ذلك: "وصرت أنا المهدد لعبادة الباطل على مر الزمان، والحقيقة أنني أنا المحافظ على ناموس الحياة. حياتي قميص العرى لهذا العالم، ونهايتي خزي للبشر. إن المسلم هو الكوكب المضيء لنصيب العالم الذي يخجل السحر أمام لمعانه"[31].

أما بالنسبة لاستقلال الفرد، فوحدة الأمة لا تعني القضاء على شخصيته، بل بالعكس لكل فرد ذاته المستقلة عن باقي الذوات الأخرى، والأمة تقوي استقلالية الذات في كونها وحدة ذاتية مستقلة ومتميزة عن ذوات الآخرين، وبمعنى آخر فالفرد عند إقبال من جهة هو شخصية وحيدة وفريدة من نوعها مستقلة عن باقي الشخصيات الأخرى، ومن جهة أخرى ليست منفصلة كل الانفصال عن باقي الذوات الأخرى، بل ترتبط بها في علاقة وطيدة، وهي علاقة أخوة ومحبة وتضامن وتعاون في سبيل بناء وحدة اجتماعية متكاملة، قوية ومتينة هذه الوحدة هي التي تدعى بالأمة الإسلامية، ولذلك يقول محمد إقبال واصفا تلك العلاقة بين الفرد والأمة:

"هو في المجمع خـــــال ومن الحشد طليق.
مثل شمع الحفل في المحفل وحيد ورفيـــــــق.
مثل شمس الصبح، فكـر فيه نور وبريـــــق.
لفظـــــه حر يسيـــر لكن المعنى دقيق."[32].

خاتمة:

يمكننا أن نستخلص في الأخير أن موضوع التربية عند محمد إقبال متعلق بالذات، وتربية الذات الإسلامية عنده تستند إلى ثلاثة أشياء؛ أولا يجب أن تكون هذه الذات غير خانعة بل مقدمة مجابهة لواقعها مبدعة متوارية عن الكسل الإدبار، ثانيا تربية هذه الذات تمر بثلاثة مراحل وهي إطاعة القانون الإلهي، ضبط النفس، النيابة في الأرض. ثالثا يجب أن تتخلى الذات الإسلامية عن الاستعلاء في الأرض بل يجب أن تتخذ من مبدأ الانفتاح على الآخر والتضحية والعطاء كمبدأ في سبيل بناء المجتمع الإسلامي الموحد. وهكذا تكون الشخصية الإسلامية في علاقة مع ذاتيتها من خلال الإثبات والمواجهة وفي علاقة مع المحفل الإسلامي من خلال الانفتاح عليه التضحية في سبيله.

المصادر والمراجع:

- رائد جبار كاظم، فلسفة الذات في فكر محمد إقبال، دار نينوى، دمشق 2009م.
- مانويل فايشر، محمد إقبال، وعلاقته بالثقافة العربية، مجلة فكر وفن العدد 32، ألمانيا 1979م.
- محمد إقبال، الأعمال الكاملة لشاعر الإسلام، تر: حازم محفوظ، دار الآفاق العربية، مصر 2005م.
- محمد إقبال، ديوان الأسرار والرموز، أسرار إثبات الذات ورموز نفي الذات، تر: عبد الوهاب عزام، دار المعارف، مصر 1956م.
- محمد إقبال، بيام مشرق، تر: عبد الوهاب عزام، مجلس إقبال، باكستان 1951م.
- محمد إقبال، صلصلة الجرس، تر: السعيد الحفناوي، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2003م.
- نجيب الكيلاني، إقبال الشاعر الثائر، ط1، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة 1959م.

الهوامش والإحالات:

[1]رائد جبار كاظم، فلسفة الذات في فكر محمد إقبال، دار نينوى، دمشق 2009م، ص85

[2]المرجع نفسه، 85.

[3]المرجع نفسه، 85.

[4]محمد إقبال، الأعمال الكاملة لشاعر الإسلام، تر: حازم محفوظ، دار الآفاق العربية، مصر 2005م، ص364.

[5]المصدر نفسه، ص364.

[6]المصدر نفسه، ص364.

[7]المصدر نفسه، ص364.

[8]محمد إقبال، ديوان الأسرار والرموز، أسرار الذات ورموز نفي الذات، تر: عبد الوهاب عزام، دار المعارف، مصر 1956م، ص13.

[9]المصدر نفسه، ص10.

[10]محمد إقبال، بيام مشرق، تر: عبد الوهاب عزام، مجلس إقبال، باكستان 1951م، ص14.

[11]محمد إقبال، ديوان الأسرار والرموز، أسرار إثبات الذات ورموز نفي الذات، مصدر سابق، ص16.

[12]المصدر نفسه، ص17.

[13]المصدر نفسه، ص17.

[14]محمد إقبال، صلصلة الجرس، تر: السعيد الحفناوي، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2003م، ص317.

[15]محمد إقبال، ديوان الأسرار والرموز، أسرار إثبات الذات ورموز نفي الذات، مصدر سابق، ص17.

[16]المصدر نفسه، ص17.

[17]المصدر نفسه، ص19.

[18]محمد إقبال، الأعمال الكاملة لشاعر الإسلام، مصدر سابق، ص340.

[19]محمد إقبال، ديوان الأسرار والرموز، أسرار إثبات الذات ورموز نفي الذات، مصدر سابق، ص19.

[20]المصدر نفسه، ص18.

[21]المصدر نفسه، ص21.

[22]رائد جبار كاظم، فلسفة الذات في فكر محمد إقبال، مرجع سابق، ص94.

[23]محمد إقبال، ديوان الأسرار والرموز، أسرار إثبات الذات ورموز نفي الذات، مصدر سابق، ص27.

[24]المصدر نفسه، ص38.

[25]المصدر نفسه،39.

[26]المصدر نفسه ص41.

[27]رائد جبار كاظم، فلسفة الذات في فكر محمد إقبال، مرجع سابق، ص99.

[28]مانويل فايشر، محمد إقبال وعلاقته بالثقافة العربية، مجلة فكر وفن، العدد32، ألمانيا 1979م، ص5.

[29]نجيب الكيلاني، إقبال الشاعر الثائر، ط1، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة 1959م، ص49.

[30]محمد إقبال، الأعمال الكاملة لشاعر الإسلام، مصدر سابق، ص362.

[31]محمد إقبال، صلصلة الجرس، مصدر سابق، ص231.

[32]نجيب الكيلاني، محمد إقبال الشاعر الثائر، مرجع سابق، ص50.